

حلم سلمى المستحيل وحلم نورا الكابوسي

فيلمان من تونس في مهرجان لندن السينمائي



يعرض مهرجان لندن السينمائي فيلمين من تونس لمخرجتين في أول أفلامهما الروائية الطويلة، الأول هو فيلم "أريكة في تونس" من نوع الكوميديا، والثاني فيلم "نورا تحلم" الذي ينتمي إلى الدراما الاجتماعية.



أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

للهولة الأولى يبدو الفيلم التونسي "عرب بلوز" Arab Blues أو "أريكة في تونس" Un divan à Tunis، وهو العنوان الفرنسي الأكثر قبولا لكونه يشير إلى "أريكة" المحلل أو الطبيب النفسي. يستند الفيلم إلى ما يشبه "السيرة الذاتية" للمخرجة التونسية-الفرنسية منال لعبيدي في أول أفلامها الروائية الطويلة، فالشخصية المحورية في الفيلم هي لفتاة تونسية (سلمى) غادرت تونس مع أسرتها إلى باريس وهي في العاشرة من عمرها. ولكنها تعود إلى تونس الآن بعد الثورة التونسية التي فتحت أبواب التغيير، تريد، كحالة نفسية، مساعدة الناس على مواجهة الضغوط والتحديات الجديدة.

لكن هل تشعر سلمى أنها تونسية أم فرنسية؟ الجميع يتعاملون معها على أنها فرنسية، يحادثونها بالفرنسية رغم إصرارها أنها تعرف العربية. وهي تحاول تعميق انتمائها بالتعمق في حياة الناس والتعرف على مشاكلهم. ويصور الفيلم المفارقات المضحكة التي تواجه سلمى خلال محاولتها إقامة "عبادة" لاستقبال المرحومين نفسيا، وتقديم المساعدة لهم. وأول خصوصيات هذه "العبادة"، توفير أريكة يسترخي فوقها "المرضى"، وهو ما يسبب الدهشة والاستغراب بل والاستنكار في البداية، فمما معني أن تختلي امرأة بالرجال وترتكبهم يسترخون أمامها فوق الأريكة؟

سلمى وفرويد

سلمى (تقوم بالدور الممثلة الإيرانية غولشفيته فرحاني)، تضع في مدخل شقتها صورة عالم الطب النفسي سيغموند فرويد وهو يرتدي الطربوش، لكنها تجد نفسها مضطربة أن توضح لجارها، وهو شيخ عصري يعنى في العمل لأنه لا يطلع لحينته ولا يتميز بالزبينة فوق وجهه، بأن فرويد هذا ليس مسلما كما يعتقد، بل يهوديا. وتستلج لها هذه الصورة أيضا بعض المتابع.

الفكرة جيدة، وهناك الكثير من المواقف المرسومة جيدا في الفيلم، فيها الكثير من الطرافة، مع تعليق اجتماعي نقدي مستتر من خلال كوميديا عبثية تصل كثيرا إلى الهزل أي "الفارص" farce.

هناك، مثلا، الخبز رؤوف الذي يروي لها كيف أنه يحلم دائما بالديكتاتوريين من أمثال صدام حسين وبوتين وغيرهما، ويعد نفسه بقلبهم في أحلامه، ولكنه يبدى اشمئزازا ونفور من فكرة تقبيل جورج بوش. هل يعاني من ميول جنسية مثلية؟ لا نعرف لكننا نراه بعد ذلك داخل حمام النساء وهو يرتدي الملابس الداخلية للنساء بعد أن صبغ وجهه بالمساحيق والألوان، يقاوم الشرطي الذي يحاول إخراجه ويقول له ويكره إنه امرأة. وفي مشهد آخر يرمي فوق ساق سلمى داخل سيارتها ويتضرع إليها أن تعطيه رقم هاتفها حتى يمكنه الاتصال بها لكي يتحدث إليها عن مشاكله النفسية التي تقاضيه في الليل.

ستقع سلمى في يد ضابط شرطة شاب (يقوم بالدور،

ماجد مستورة) يطالبها بالخضوع لاختبار تعاطي الخمر. لكنه يريد ما أن تنفخ في وجهه مباشرة بدعوى أن الشرطة لا تملك أجهزة فحص (بسبب نقص الإمكانيات) في مشهد يفجر الكوميديا. ولكن سرعان ما يغرق في مواقف كاريكاتورية تتسم بالمبالغة دون أن نعرف بالضبط مما يشكو الناس أو ما الذي يشغل الفتيات والنساء وماذا يرغبون جميعا في مغادرة تونس؟

«أريكة في تونس» فيلم من قلب المجتمع التونسي، يتعد عن «موضة» المتاجرة بموضوع الثورة والمغامرات الداعشية الساذجة

تلجأ سلمى إلى جدها العجوز المريض تطلب مساعدته في الحصول على خطاب تزكية ضمن الأوراق الخاصة المطلوبة للحصول على ترخيص بفتح العيادة بعد أن يرغمها الشرطي على وقف نشاطها، فيريد الرجل الاتصال بصديقه الرئيس زين العابدين بن علي الذي يعلق صورته على جدران منزله، أي أنه لا يعرف أن بن علي أقصي عن السلطة.

عم سلمى "مراد" يسر لها بازمته النفسية التي يعاني منها منذ الثورة التونسية في 2011، وكيف أنه أدمن على

ال"شراب" عندما لم يعد يشعر بالأمان، ويرغب في مغادرة تونس. أما ابنته "الفسة"، التي تغطي شعرها بالحجاب لتخفي أثر صبغة شعر رديئة شوهته، فهي تقبل الزواج من شاب مثلي الجنس طالما أنه سيأخذها معه إلى باريس أو لندن.

ضابط الشرطة يبدو كما لو كان الوحيد الذي يعمل في تونس، كما تقول له سلمى في أحد المشاهد، فهو يظهر لها في كل وقت وكل مكان، ورغم إعجابها بها ورغبته في إقامة علاقة معها إلا أنه يتشدد في ضرورة حصولها على ترخيص بالعمل مع زبائننا في الشقة التي استأجرتها فوق سطح إحدى البنايات. ولكن سلمى تواجه الكثير من العقبات البيروقراطية خاصة وأن الوظيفة المسؤولة لا تهتم بمتابعة طلبها بقرم ما يهيمها أن تبغ لها بعض الملابس الداخلية المستوردة.

كل شيء في تونس يبدو فاسدا ومختلا وعبثيا، يدفع سلمى دفعا إلى المغادرة لكي تعود من حيث أتت، لكنها على العكس من الآخرين، تقاوم وتحلم بالتعلق على العقبات.

الفيلم ناطق في معظمه بالفرنسية مع قليل من العربية. وليس هناك ما يوحي بوجود موسيقى البلوز العربية أو غير العربية. وتستخدم المخرجة المونتاج بحيث تنتقل بين شريطي الصورة والصوت انتقالات متقاطعة، يظهر الصوت قبل الصورة أحيانا، أو من خارجها أحيانا أخرى، كما يتكرر صوت سلمى وهي تردد العبارة نفسها عن نفسها، من خارج صورتها وهي صامتة. ومع الإيقاع السريع يضفي الطابع الكوميدي الهزلي على الكثير من مشاهد الفيلم خاصة ونحن نشاهد

في لقطات متتابعة، صفوف الزبائن وهم يتقاطرون على العيادة التي أقامتها سلمى في شقتها المتواضعة فوق سطح البناية، ويتكرر ظهور الخبز في مشاهد يبلغ فيها الأداء قمة الهزل. وكثيرا ما تبدو الكوميديا من خارج السياق، أي متعلقة افتعلا، كما تبدو المبالغ غير مقنعة، بل وتجعل الفيلم يكاد يسخر من الناس أنفسهم وليس من الحالة العبيثة التي يعيشونها في مجتمع عشوائي مضطرب. والواضح أيضا أن المخرجة عجزت عن وضع نهاية مقنعة لتجربة سلمى، فشاعت أن تبغها على النهاية مفتوحة.

نورا تحلم

إذا كان حلم سلمى يواجه كل هذه العقبات والمشاكل والعراقل، فمما عن "حلم نورا" أول أعمال المخرجة التونسية البلجيكية هند بوجمعة؟

العمل الأول للمخرجة التونسية-البلجيكية هند بوجمعة، يبدو شديد التماسك والقوة والتأثير، ويمكنني القول إنه أكثر الأفلام التونسية التي شاهدتها هذا العام، توفيقا، سواء في قوة الموضوع أو صلابته السردي وتماسك السيناريو ووضوح الشخصيات وبراعة الأداء. وهو يتميز أيضا بالجرأة في معالجة موضوعه، والبعد عن المباشرة التي كان يمكن أن تقلل كثيرا من تأثيره، وتجعله تعليقا اجتماعيا ساذجا كما رأينا في أفلام أخرى من الأفلام الواقعية النقدية.

هذا فيلم من قلب المجتمع التونسي، يتعد عن "موضة" المتاجرة بموضوع الثورة وتداعياتها، كما يتعد عن المغامرات الساذجة التي رأيناها في أكثر من عمل عن فرار الابن أو الابنة للالتحاق بتنظيم داعش الإرهابي، كما يتخلص عن تيمة الهجرة التي تسيطر على الكثير من الأفلام التونسية والمغاربية عموما. في الفيلم إشارات واضحة إلى الفساد



نورا والحب المحرم

سلمى بطلة «أريكة في تونس» تبحث عن الانتماء

تمتصون إلى جانب أهم دائما وفي كل الظروف. وضابط الشرطة الفظ، ثم زميله المرتشي المتواطئ، والطبيب الذي يبدو على استعداد لتجاوز القانون طالما أنه يحصل على المال.

أداء هند صبري يرتفع بالفيلم إلى مصاف الأعمال الكبيرة في السينما العربية. إننا لا نكاد نتعرف هنا على هند صبري التي نعرفها، فهي تبدو بدنية قصيرة مشعقة الشعر، تهزل في سيرها، تصمت وتعتبر بعينين يملؤها الحزن تارة، أو الحنق والرفض والاحتجاج والغضب تارة أخرى. يبرز شعورها بالفزع ويفصح عن نفسه بعد أن تتعقد القصة ويصبح أمامها أن تختار. لكنها رغم ما تظهره من قوة كامرا عاملة هي الأقوى عمليا في الواقع بالضرورة، إلا أنها في محيط البيت والأسرة وأمام الزوج البضع أضعف من أن تصارح، وعندما تشعر أنها يمكنها أخيرا التصريح بحبها والاحتفاظ به، تفقد حبيبها. فقد تأخرت كثيرا انتظارا لحدث المعجزة.

أداء الممثلة هند صبري في «نورا تحلم» يرتفع بالفيلم إلى مصاف الأعمال الكبيرة في السينما العربية

أداء هند صبري، المتألق دائما، يساهم في تقديم تلك الصورة الواقعية القوية المؤثرة للشخصية الرئيسية في الفيلم، وهي تبدو مسيطرة تماما حتى على المشاهد واللقطات التي تتحرك فيها دون أن تتكلم، في الشارع والعمل، تقفز في وسيلة رخيصة من وسائل المواصلات الشعبية، أو تعبر الطريق مسرعة لكي لا تتأخر عن العمل الشاق في غسل أغطية السرير في أحد المستشفيات. ويدعم أداء هند صبري طاقم من الممثلين التونسيين المحترفين على أعلى مستوى؛ لطفي العبدلي، حكيم المسعودي، سيف الدين الظريف، جمال ساسي وإيمان الشريف. وهو في ظني أكثر طاقم تمثيل تونسي تجانساً وصدقاً في الأداء يظهر في فيلم تونسي هذا العام.

نورا تحلم، أساسا، بالحرية. لكن الحرية تنتزع ولا تمنح. ولكن ليس بعد. حتى لو كان القانون في صف المرأة، فالقيد التاريخي القديم والخوف من الآخرين، ومن نظرة المجتمع مازالا مسيطرين، لذلك فالمرأة مسلوية الإرادة، التي تنتمي إلى الطبقة العاملة المسحوقة، تعاني من الانسحاق وصدقا في ثلاث مرات: في العمل وفي البيت وفي المجتمع عموما.

أداء تمثيلي رائع

يتمتع الفيلم بتوازن دقيق بين شخصياته جميعها، الزوجة-الأم، الزوج-الاب-للص المنصرف. الحبيب الذي يبذل كل جهد للاحتفاظ بحبه لكنه لا يستطيع تحمل عواقب تعقيدات الموقف. الأطفال الذين تتمايز شخصياتهم وتنمو مشاعرهم في محيط شاق، لكنهم أيضا